

ملاح التطور الفكري والثقافي في المملكة

منذ عهد الملك عبدالعزيز

عبدالعزیز بن عبد الله السالم *

تمهید :

تحفل أرض جزيرتنا العربية بكنوز ثمينة من المعادن النفيسة وأهم هذه الكنوز وأثمنها : العبقريات التي أخرجتها والرجولات التي ظهرت وتألقت فيها .. فقبل مائة عام خرج في هذه الجزيرة فتى في ربيع العمر وريعان الشباب وجد نفسه وأسرتة وحاشيته في ضيافة كريمة مهما أحاطتها السماحة يجب أن لا تطول ، ولدى أخوة كرام مهما رحبوا فلا بد من الرحيل .

كان عبدالعزيز ذلك الفتى الذي يدير في ذهنه أهمية الوطن ويحتضن في قلبه صورته، فقد كان الوطن هاجسه الذي لا يفارقه في يقظة ولا منام ولا في سر أو علانية: فيه تجسدت آماله وتمثلت أمانيه، وقد ألح هذا الهاجس على ذهنه حتى لازمه التفكير في الوطن وأصبح لونا من حياته وصفة من صفاته، فقد ملأ واقعه وخياله وسيطر على حاضره ومستقبله، فصار هدفه المهم الذي يخطط له وغايته التي يعمل من أجل تحقيقها، وقصده الذي يرتسم أمامه في كل لفته وكل حين. وقد استجاب البطل لالحاح الهاجس الذي لازمه حيث لم يهنأ في صحوه

* ليسانس في اللغة العربية وآدابها ، جامعة القاهرة ، ١٣٨٣ هـ .

- له مشاركات في التأليف والمقالة .

- يعمل حالياً أميناً عاماً لمجلس الوزراء السعودي .

ومنامہ ولا فی وحدتہ واجتماعاتہ حتی یحقق ما یرید ، فقد ہیمن حب الوطن علی عقلہ واستولی علی مشاعرہ وكانت استعادتہ محور تفکیرہ ومطمح أملہ.. وأصحاب العبقریات لا تضیق أمامہم الطرق ولا تلتبس علیہم الوسائل ، والمملک عبدالعزیز وهو أحد العباقرۃ لم تختلط علیہ السبل ولم تخنہ العزیمۃ ، فقد حول أفکارہ إلى خطط وأحلامہ إلى حقائق ، فرسم الأهداف وتوقع النتائج وهو یفکر فی مغامرۃ تملیہا الشجاعۃ الشامخۃ وتدفعها العبقریۃ القیادیۃ .. وهو یعلم أنه سیکحوض طرقاً موحشہ وسینتہی إلى أبواب موصدۃ .. لکنہ بإیمانہ العمیق برہ ثم ثقتہ بنفسہ وحسن تقدیرہ للمواقف : کان لہ ثقبۃ کبیرۃ من عون اللہ لہ وأنه باعتمادہ علیہ سبحانہ سیرضع مفاتیح النصر بیدہ .. لذلك قاد الکتیبۃ المبارکۃ تظلہ رایۃ لا إله إلا اللہ یجتاز بها طرقاً صعبۃ وتُفتح أمامها أبواب مغلقة ، وما ہی إلا جولۃ حاسمۃ فإذا علم التوحید یرتفع ، وإذا شعار الوحده یتحقق منہجاً للدولۃ التی أقامها الفارس البطل ، وبالتوحید والوحده قام حکم المملک عبدالعزیز فی ہذہ البلاد ؛ فقد كانت وثبۃ أسد الجزیرۃ لاسترجاع الوطن أشبہ بروایۃ خیالیۃ بدأت بفصل مہم تمثل فی استعادۃ الریاض.. ثم تلتہ فصول أخرى تجسدت فی توحید البلاد وبناء کیانہا وتحولت الروایۃ خیالیۃ إلى حقیقۃ واقعیۃ نعيشہا وطناً واحداً وأمة موحدۃ .

* * *

فی الماضي :

والصورۃ القائمۃ فی الأذهان عن الحیاۃ الفکریۃ والثقافیۃ فی بلادنا قبل عہد المملک عبدالعزیز كانت صورۃ معتمۃ بحاجۃ ، لأن تجلوها نظرۃ تلقی الضوء علی الحالۃ العامۃ التی كانت تعيشہا البلاد فی مناطقہا المتعددۃ، ومن خلال

استعراض موجز جداً للحالة التعليمية والجمود الفكري في ظل العهود السابقة للعهد السعودي ، فقد كان للاستعمار سلطة غطت مساحة من البلدان العربية المجاورة لا سيما من جانب الاستعمارين الإنجليزي والفرنسي .. كما أن السلطة العثمانية امتد نفوذها ليشمل بلاد الحرمين الشريفين وبخاصة مكة المكرمة والمدينة المنورة .. كما نال النفوذ التركي في تسلطه محافظة الاحساء ومنطقة عسير ، وكان من نتائج ذلك أن تقلصت مساحة التعليم إلا في حدود ضيقة وفي نطاق المراحل الأولية مثل الكتاتيب وما في حكمها من المدارس التي كانت غايتها إعداد الموظفين وكان اهتمامها منصباً على تدريس اللغة التركية بقصد احلالها محل اللغة العربية في محاولة يائسة لطمس آثار الثقافة العربية الأصيلة وتحجيم دار الفكر العربي والعمل على قطع صلاته بترائه الأصيل وموارثه العربية العريقة .

وبعد انقشاع غمة الاستعمار وانطواء ظلال التسلط التركي استيقظت هذه الأمة في هذه البلاد على إشراقة فجر ولید مع عهد جديد يقوده الملك عبدالعزيز بعد أن تحرر الوطن بكامله من السلطات الأجنبية الطارئة ، فكان عهد البناء والتأسيس ، وتجاوبت الأمة المتطلعة إلى المجد مع القائد الرائد ، فجددت آمالها وبعثت طموحاتها مستجيبة لدعوة العلم التي حملها الملك الباني ، وسارت في موكب النهضة الواعدة التي كانت محجوبة عنها فيما سلف من عهود سابقة لعهد آل سعود ، وكان من حصيلة تلك النهضة التي أرسى دعائمها الملك عبدالعزيز أن عاشت البلاد فكراً حراً وثقافة واسعة وحياة واعدة بالتقدم والازدهار .

* * *

في عهد عبدالعزیز :

ومتابعة المواقف المضیئة في تاریخ حکم هذا العاهل الکبیر وفي غط حياته لا یحدها حصر ، فهي تحتاج إلى مؤلفات لا إلى سطور في بضع صفحات . ذلك أن عهده رحمه الله زاهر بالإنجازات الکثیرة المهمة . يأتي في طليعتها توطيد الأمن الوارف الذي نحيا في کنفه والاستقرار الدائم الذي صار سمة ملازمة للمملكة ولله الحمد ؛ ولذا فإنه يتعين عند الحديث عن عهد الملك عبدالعزیز أن يكون التناول من زاوية واحدة محدّدة لأن المنجزات کبيرة وذات زوايا متعددة ، ولعل أقل الموضوعات تناولاً وتداولاً على الساحة العامة : هو الجانب الفکري والثقافي الذي تحقّق في عهد الملك عبدالعزیز وكان له امتداده بعد ذلك ، فقد كان تغمده الله برحمته صاحب رسالة وياعث منهج لما يتفرد به من خصائص ومزايا جمعت بين عبقرية القيادة وحنكة السياسة وتوجهه نحو الإصلاح والبناء ، وبتلك الخصائص والمزايا صنع لهذه البلاد مجداً لا تزال تسير في ظله وتحافظ عليه مع تعاقب العهود ؛ لحکم أبنائه الملوك الذين تابَعوا رسالته من بعده وحققوا نهجه في البناء والإصلاح وفي المحافظة على المسار الذي تميزت به المملكة، وكان طابعاً مميزاً لها في المنحى العربي والمجتمع الإسلامي .. فقد كانت البلاد قبل حکم الملك عبدالعزیز ممزقة الأوصال مشتهة الاتجاهات موزعة الولاء ، فجمعها المؤسس لهذا الكيان الکبیر بعد شتات ووحدّها بعد فُرقة ، وأعاد إلى مجتمعاتها روح التلاحم وأيقظ في أفرادها نخوة التعاون ، فانصهروا في وحدة متماسكة وسادتهم أواصر الأخوة الشاملة ، فانقلبوا بنعمة الله إخوانا، وكانت البلاد في تلك الفترة تفتقر إلى كل مقومات

الدولة ، فعمل على تنظيمها واصلاح شأنها والاهتمام بمرافقها ، ولم يشغله جانب مهم عن جانب أقل أهمية ، فقد وظف وقته كله لرفعة الوطن وصالح المواطنين .

وإذا كان يعيننا فى هذا الصدد الجانب الفكرى والثقافى فإن الملك عبدالعزيز قد اهتم بهذا الجانب كاهتمامه بالجوانب الأخرى ، وإذا كانت المقومات الفكرية والثقافية تعتمد فى واقعها الأساسى على التعليم الذى هو أساس مهم فى جميع نواحي الحياة ، وكان واقع هذا التعليم فى البداية ممثلاً فى الكتاتيب التعليمية التى تقوم على الطريقة البدائية ، فإنه فى عهد الملك عبدالعزيز جرى تحويل هذا التعليم إلى مدارس نظامية ومناهج مطورة ، وباهتمام خاص منه توسعت دائرة التعليم وامتدّ نطاقه فشمل المرحلة الابتدائية والمتوسطة والثانوية ، وجرى إيفاد بعثات من الطلاب الذين حصلوا على مؤهل المرحلة الثانوية إلى الخارج للدراسات الجامعية والعليا مما مهّد فيما بعد لإنشاء كليات تحولت بعد ذلك إلى جامعات أصبحت رافداً مهماً للوطن فى مسيرته نحو النهضة الشاملة التى يعيشها فى حاضره .

* * *

الثقافة الذاتية :

وقد استهلّت انطلاقة الحركة الفكرية والثقافية بصورة ملموسة فى هذه البلاد فى عهد المؤسس لهذا الكيان الملك عبدالعزيز طيب الله ثراه ؛ فقد كان فى مسلكه مثلاً للحاكم الواعى الذى يحفز الاهتمام بالوعى المبكر فى البلاد ، فكان اهتمامه بتنمية الجانب الفكرى والثقافى إلى جانب اهتمامه بالجانب

الأمني والسياسي .. فرجل في وزن الملك عبدالعزيز لا يكتفي بالاهتمام بجانب من الحكم على حساب جوانب، أخرى وإنما يكرس كل اهتماماته بها جميعاً ويعطي كلاً منها الحجم المناسب من تلك الاهتمامات بحسب مكانته وبقدر أهميته ؛ وتأسيساً على هذا الاعتبار فبعد أن وطّد الحكم وأمنّ السبل ووحد البلاد وجمع شتات الشعب في وحدة متماسكة : التفت إلى المقومات الفكرية والثقافية فوضع أسسها ومهدّ لبناء نهضة حديثة في البلاد.. ومردّ هذا الاهتمام بالفكر والثقافة إلي جانب ما كان يواجهه من مسئوليات كبيرة وأحداث خطيرة تشغل جُلّ وقته : أن الثقافة العامة بكل أبعادها السياسية والفكرية تمثل جزءاً من وقته ، فهو يتابع الإذاعات العربية والأجنبية عبر موظفين ومترجمين مختصين في استقبال الأخبار العربية والأجنبية وتلقي الأنباء أولاً بأول في متابعة مستمرة ليلاً ونهاراً، وقد جرى تخصيص أوقات معينة يحضر هؤلاء المتابعون للأخبار بين يدي الملك عبدالعزيز لقراءتها بنصّها كما تلقوها من الإذاعات التي أخذوا عنها ، فلا يفوته شيء من أخبار العالم وأحداثه فيحيط علماً بما يدور من أحداث الساعة وما يجرى من تصرفات في عالمه المعاصر .

وهو رحمه الله تعالى لا يكتفي بما يُنقل إليه من معلومات عبر الإذاعات، وإنما يضيف إلى ذلك الاهتمام توسيع آفاقه الفكرية وإطلاعاته العلمية، فقد خصص جانباً من جلساته المنتظمة المواعيد المتناسقة في التوقيت: للعلم والثقافة العامة حيث يقرأ علماء مختصون كتباً مرجعية في الدين والسير والتاريخ والجغرافيا والاجتماع والسياسة إلى جانب بعض مؤلفات في الآداب

والشعر والحوادث التاريخية ، فمجالسه رحمه الله حافلة بالثقافة المتنوعة والفكر المستنير ، وهذا التنوع في الموضوعات التي تُتلى بين يديه مما يساعد على استيعاب الفوائد المطلوبة وعدم تسرب الملل إلى نفوس الحاضرين مجالس هذا العاهل الكبير .. وكان منهجه منتظماً في أوقات معلومة مخصصة للقراءة في مجالسه . كما أنه كان يختار بنفسه المؤلفات أو يستأنس بمشورة أفاضل العلماء الذين تضمهم مجالسه الرحبة مع العلم أن الذين يقرأون في تلك المجالس الملكية مزودون بتجارب سابقة وبأداء حسن ، فقد كان بينهم العالم والشاعر والراوية المجيد والقارئ المتقن للقراءة .. أما أهم الموضوعات التي تجرى تلاوتها فغالباً ما تكون في التفسير والحديث والتوحيد والفقه والسير والمغازي والسياسة الشرعية وأحوال المجتمعات ، وبهذا النهج الذي سار عليه استطاع أن يوسع دائرة معلوماته وأن يكثف حضوره الواعي في هذه المجالس العلمية وما سواها من المواقف والمقابلات لمناقشة ما يدور على الساحة من أحداث سياسية أو علمية أو اجتماعية ، وكانت له مواقف تؤكد الحضور الذهني والإدراك العلمي للقضايا والأحداث ، ويعود هذا الاهتمام إلى التشقيف الذاتي الذي لم تشغله عنه مسئوليات الحكم وتوطيد أركانه ، فقد كان يهتم بهذا التوجه عندما أحاط نفسه بوسائل المعرفة وعمر مجالسه بنفائس الكتب واصطفاء العلماء ، فكانت تلك المجالس تمثل بيئة علم ومعرفة ، فالمؤلفات قريبة منه في مجالسه وقراؤها قريبون كذلك منه ، وكان التعايش مع الكتب والعلماء : بمثابة النافذة المضيئة التي ينظر من خلالها إلى ما يربطه بعالم الفكر والثقافة خاصة وبالعالم كله مع اختلاف توجهاته وتفاوت مواقفه ،

ولذلك كانت اهتماماته متميزة في هذا المضمار : معاشة ذاتية ورعاية مادية ، فقد كان من بين اهتماماته في هذا المجال طباعة الأسفار العلمية وتوزيعها على طلاب العلم وأصحاب التوجهات الثقافية ، فاهتماماته بالكتب موزعة على أفضل مستوياتها بين القراءة والاطلاع والطباعة والتوزيع ، والمؤلفات التي أمر بطباعتها على نفقته كثيرة بينها مراجع علمية مهمة في موضوعات مفيدة وقد كان أكثرها في العقيدة والشريعة والفقه والتاريخ إلى جانب اختصاصات أخرى، ومتابعته رحمه الله لأنواع العلوم والمعرفة حضوراً بين يديه أو طباعة بتكليف منه أو توزيعاً على حسابه الخاص : كل ذلك مما تفرّد به هذا الملك المحبوب بين ملوك وزعماء هذا العصر ، وإلى جانب اهتماماته المتوالية بأنواع العلوم والثقافة ومعاشته لأسفار الكتب ، فقد كان لديه انفتاح متوازن على وسائل الحضارة والتعامل معها في وقت مبكر من منطلقات محدّدة وفي إطار يتناسب مع طبيعة المجتمع في ذلك الحين وتكيفه مع وسائل المدنيّة الحضارة وتقنيات الحضارة الوافدة .

* * *

الانطلاقة الفكرية :

ومنذ أن استقرت دعائم الحكم للملك عبدالعزيز عمل على رعاية الأدب والصحافة واطلاق حرية الرأي التي كانت مقيدة قبل عهده ، وقد واكب تلك تلك الرعاية تفتح مواهب شعرية وانطلاق ملكات أدبية وبروز شعراء وأدباء في الساحة الثقافية ، وعندما تشرق أنوار الحرية في الساحة العامة تبدو في حياة الأمم لمحات من النهضات الفكرية تقودها إلى معالم التفوق والإبداع .. ومثوية

التأسيس المقترنة باسم الملك عبدالعزيز رحمه الله : يجري الاحتفاء بها في ظل ما قدمه هذا العاهل من عطاء موفور في مجالات متعددة . منها المجال الفكري والثقافي ومن البدهاة أن الفكر والثقافة أهم الدّعائم الأساسية لبناء الصرح الحضاري في جميع العصور وفي عصرنا بصفة خاصة عصر التقنية وثورة المعلومات ، وتحدد أدوار كل أمة في تعاملها مع عطاء الحياة علماً ومعرفة وثقافة وفكراً ، وكما تتدافع موجات البحر كذلك تتدفع الحركة الفكرية والثقافية في مسارها وتؤدي رسالتها الإبداعية في أجواء مفتوحة من الحرية والانطلاق عبر اللغة الفاعلة والصياغة المتقنة . حيث تتواصل جسور الثقافة عبر دورها الحيوي في عالم يهتم بالتقنيات الحضارية والتوجهات الفكرية ، فلم يعد العالم مغلقاً على نفسه منعزلاً بذاته وإنما هو كيان مندمج في كيانات متعددة يشترك معها في مقومات كثيرة سواء كانت هذه المقومات مادية أو ثقافية فكرية ، والثقافة والفكر لهما مكانة متميزة في العالم الذي تقاربت أوطانه وتوحدت اتصالاته ، وأي تخلف في هذين المجالين يعدّ تخلفاً اجتماعياً وحضارياً ، وقد حظيت الثقافة في صورتها العامة باهتمام كبير كان من نتائجه اتساع نطاقها وانتشار فاعليتها، وماثورة التقنية الحالية سوى لمحة من ملامحها وصورة منها فلها امتدادها في العمق الزماني والساحة المكانية ، والفكر رديف الثقافة وأحد نتائجها المهمة فهو لا يعتمد في أساسه على رمال ناعمة وإنما يعتمد على قاعدة صلبة في منهجية ثقافية رحبة الأبعاد .. وقد ساعدت الصحافة في اتساع القاعدة الفكرية والمد الثقافي لكونها بمثابة المرآة التي ينعكس عليها أثر الفكر وامتدادات الثقافة العامة ، ومع صدور الصحف

المعبرة عن أحداث المجتمع وأفكار الكتاب وقصائد الشعراء أنشئت أول محطة إذاعة وكان انشاؤها ارهاصاً لما بعدها من تلفاز وقنوات فضائية تحمل الإعلام المنظور بعد الإعلام المسموع .

* * *

وفي ظل فاعلية التشجيع المادي والمعنوي والدفع المستمر للنشاط الثقافي والعمل على توسيع الآفاق الفكرية : كان انتعاش النهضة الأدبية في هذه البلاد واتساع نطاقها وتجدد عطائها والارتقاء بمفاهيمها وقد تجسدت النهضة الفكرية الثقافية في فنون أدبية كثيرة تراثية ومعاصرة . كما يتمثل ذلك في حشد كبير من الإصدارات التي تُعنى بالعلم والمعرفة وتهتم بالثقافة والفكر ، وكان من آثار ذلك الاحتشاد ونتائجه وفرة المطبوعات للصحف والمجلات والدوريات والمؤلفات ، وقد حفلت الساحة الأدبية بفنون القول وتنوع نواحيه المختلفة وتعدد ألوانه المتنوعة ، وقد شمل هذا التنوع ألواناً فكرية وثقافية عديدة في المجالين الشعري والنثري على اختلاف الأجناس الفكرية في ميدان النصوص الأدبية من مقالة وقصة ورواية ونقد وبحث ودراسة وتأليف ، وقيام مؤسسات تُعنى بهذه التوجهات ممثلة في دور النشر والمؤسسات الصحفية والندوات والأندية الأدبية وكثير من صور الآداب والمعرفة ، وفي ظل هذا التوجه كثرت المطبوعات واحتل الأدب السعودي مكانة بين الآداب العربية التي سبقته في هذا المضمار استطاع أن يلحق بها وأن يزاحمها في ميدان الفكر والثقافة .. ومع امتداد الزمن وتطور الأوضاع المعاصرة امتدّ البناء العلمي والأدبي الذي استكمل مقوماته واتسعت دائرته في المنظومة الفكرية والثقافية

في ظل أطر جديدة وتحولات عصرية سريعة أسفرت عن نتائج عمقت الفكر وأثرت المعرفة ، وبذلك تحققت ثروة فكرية وثقافية في هذا الوطن كان لها أبعادها الواسعة وآثارها الواضحة ، وهذا ما يتمثل في الواقع الذي نعيشه ونعايشه في ضوء التقدم الفكري والتنوع الثقافي، وقد تهيأت للنهضة الأدبية كل عوامل النجاح التي كانت تفقد خطواتها المستقبلية. على أنها في مستهلها كانت ككل البدايات وثيدة الخطى محدودة التوجهات ؛ لأنها كانت تحيا فترة تخلف لم تنفرد بها بلادنا وحدها ولكنها شاملة لجميع البلدان العربية الأخرى .

فترة التخلف :

عندما بدأت مظاهر ضعف الحكم العربي في أواخر العصر العباسي بدأت معها عوامل الوهن تسري في البيئة العربية : حينما تغلب الأعاجم على سدة الحكم واستقلوا بالسلطة في أيديهم فكان نتيجة ذلك اقضاء الثقافة بكل روافدها العلمية والفكرية ، فأدركها الذبول ثم الانحسار وقد امتدت هذه الفترة منذ انطواء العصر العباسي في بداية النصف الثاني من القرن السابع الهجري (٦٥٦) فقد سادت العالم العربي فترة جمود فكري امتدت على مساحة كبيرة من الأوساط السياسية والاجتماعية والعلمية والثقافية والفكرية ، وتحول الأدب إلى أمشاج هزيلة من المحسنات البديعية والزخارف اللفظية والمعاني الباهتة التي ليس فيها روح فاعلة وينقصها الحضور الفكري المتوهج ، وظل الأدب سجين قوالب بالية وتصورات تافهة توائم الوهن الذي كان يعيشه المعاصرون لتلك الفترة المجذبة في كل مناحي الحياة وإذا كان الأدب هو المظهر المعبر عن وجدان الأمة فإنه خلال تلك الفترة الغابرة كان مقيداً بألفاظ جامدة

بَلِيَتْ من كثرة التكرار لا تحتوي أي مضامين ذات أهمية وإنما تنطوي على معانٍ مستهلكة مع كثرة التردد ، فهي تدور في فراغ ذهني وإطار هامشي يغلفها الجمود والركود ، والمعاني التي تضمها سطحية ليس فيها أصالة ولا تنطلق من تجربة ذاتية أو معاناة نفسية مما لا يتطلبه الفكر الواعي والأدب الأصيل من تفاعل مع أحاسيس أفراد المجتمع وشعور بمشكلاتهم ورصد لمعاناتهم وتجارب مع آلامهم وأمالهم .

مرحلة الإحياء :

لقد مرت بهذه البلاد - كما تقدم مثلما مرّ بغيرها من البلدان العربية - فترة زمنية سادها التخلف العلمي امتدت آثاره إلى الفكر والثقافة نظراً لما صاحب تلك الفترة العقيمة من إفلاس في العلوم وتوقف عن التطور ، وتأخر في جميع الأوضاع السياسية والاجتماعية والفكرية ، فقد انعكس أثر ذلك التخلف على الأدب الذي انحدر شعراً ونثراً إلى مستويات هابطة فكرياً وثقافياً ، وفي ظل هذه الصورة المعتمدة جاء جيل ضاق بتلك القيود المركبة من الألفاظ المكرورة والصور المسطحة فعمد إلى عملية إحياء لصور الأدب في قديمه شعراً ونثراً ، فكان الرجوع إلى التراث في أصوله العريقة لاستلهام معانيه واستعادة صوره والسير على منواله ، وكان أكثر الذين اهتموا بالإحياء من الشعراء الذين جاءوا في مستهل هذا العصر وواكبوا بعض مظاهره ، وكان من نتائج ذلك : التأثير بالتراث العربي في شكله ومضمونه ومحاولة إعادة أبرز صوره إلى الساحة من جديد ؛ بعد ما جفّت منابعه من أذهان جيل فترة التخلف واختفت معالمه في فترة الجفاف والتبليد الذهني الذي ظل فترة من الزمان تعاني

منه الأمة العربية كلها . حتى بدأت مراجعة التراث في قِيَمه الأصيله وأمجاده العريقة ، ولم ينحسر ذلك التخلف إلا بعد عملية الإحياء التي قام بها أفراد من طلائع شعراء الجيل الريادي الذي سبق إلى العملية التطويرية في العملية الإحيائية والعمل على التخلص من تراكمات فترة التخلف ، ولعل أهم شاعرين كانت لهما الريادة في دور الإحياء هما : الشاعر محمود سامي البارودي في مصر والشاعر محمد بن عبدالله بن عثمين في هذه البلاد .

مرحلة التقليد :

كان لابد من تطور مع التقدم الزمني فكل فترة تحمل معها جديداً في الرؤية وفي التصور ، فكانت المرحلة التالية لدور الإحياء : دور التقليد ، وإذا كان للدور الإحيائي رواد فإنّ للدور التقليدي رواداً كذلك . ساروا على نهج الشعر العربي والنثر بمفهومه العام منذ الجاهلية حتى العصر العباسي ، فكان لعطاء الشعراء والأدباء القدامى رنين تجاوبت له أصداً لدى هذا الجيل الذي نسج على منوال أسلافه واقتفى آثارهم . لكنه طوّر في بعض الصياغات الشعرية والصور الأدبية بما تقتضيه طبيعة عصره وما يتلاءم مع اتجاهه وينسجم مع مقتضياته السياسية والاجتماعية ، فالتقليد ليس نقل الأفكار والصور التي صدرت عن القدامى أو صبّها في قوالب مماثلة ، وإنما مقتضاه التأثير بالفكرة والنهج مع التصرف في المعاني والألفاظ بحسب مقتضيات العصر وطبيعة تكوينه ، وفي هذه المرحلة التقليدية الكلاسيكية نجد تطلعات جديدة لم تقف عند حدود قوالب مصنوعة منذ العصور السالفة وإنما تجاوزتها إلى تجديد يحتمي بالمحافظة على الطابع السابق والقالب القديم ، وقد تتلمذ

جیلُ هذه المرحلة على الموارث التراثية العريقة وبذلك سادت النزعة التقليدية في فترة زمنية معينة ولا يزال لها أنصارها حتى الآن .

مرحلة التجديد :

ومع انطلاقة العصر وظهور جيل جديد ينازع الجيل السابق له وينافسه جاء جيل جعل التجديد نهجه في ساحة الأدب ، ففي ظل المد الحضاري تكونت مفاهيم جديدة لم تستطع البقاء مع الوضع القديم فكان الخلاف بين التقليد والتجديد ، وكل فريق يرى أن منهجه هو المنهج الأسلم وأن طريقه هو الأفضل ، وقد صاحب نظرة الجيل الجديد تحول في المسارات الاجتماعية والاقتصادية والثقافية والفكرية وانفتاح على عوالم خارج دائرة العالم العربي ، فكان التأثير بالمصادر الأدبية المتطورة سواء كانت من البلدان العربية التي سبقت إلى العالم الخارجي وتأثرت به في مواقع كثيرة من حياتها أو من بلدان خارج الوطن العربي ، فقد حدثت حركة انتقالية رافقها التجديد في كل الأنواع الأدبية نثرية وشعرية .. وهذا التحول يعتبر تحولاً طبيعياً في مسار التقدم العلمي والتقني والثقافي بصفة عامة وكان لعامل ثورة الاتصالات والمواصلات أثر مباشر في هذا التجديد ، فقد امتدت الآفاق العلمية والحضارية وصنعت أبعاداً واسعة في محيط الفكر والثقافة ، وصدرت كتب ودواوين تمثل هذه المرحلة التجديدية . على أنها مع رغبتها في التجديد وتعاملها معه لم تنجح إلى الخروج على عمود الشعر العربي وأوزانه كما لم تخرج على قواعد اللغة العربية وأساليبها الرصينة ، وظلت عملية التجديد تسير على نهج وسط بين الأسلوب الاتباعي القديم والأسلوب الإبداعي الحديث تجاوباً مع الطموحات التي تفتحت أمامها أبواب

الاتصالات، وفي هذا الاتجاه التجديدي المحلي كانت الاستفادة من الصحف والمجلات والدوريات والمؤلفات وسائر المطبوعات . إلى جانب الإرسال الفضائي الذي حمل معه برامج وتصورات تساير العصر وتتمشى مع تقدمه وتطوراته ، وفي ظل المؤثرات المعاصرة كثرت روافد الثقافة وتعددت مصادرها واتسعت مناحي التفكير وكانت محصلة ذلك نهضة أدبية تقود إلى تطور شامل.

حركة الشعر الحر :

في أثر التطور الفكري وانفساح مجال التواصل بالشعوب الأجنبية خارج الوطن العربي الكبير ساد التأثير بالمدارس الفكرية الغربية . سواء كان هذا التأثير مما حمله الدارسون في الغرب أو انساق إليه الشباب المثقفون الذين لم يبرحوا الوطن ، فقد فرص التأثير نفسه في مجالات كثيرة لا فيما حملته الحضارة في ركابها إلينا وإنما كان امتداد التأثير إلى النواحي الفكرية والثقافية . لذلك جاءت حركة الشعر أو ما يطلق عليه شعر التفعيلة تأثراً بالمنهج الغربي وكانت البداية الحقيقية لهذا الشعر وبداية انتشاره تقريباً منذ النصف الثاني من القرن العشرين ، وكانت البداية آحادية لشعراء محدودين ثم نمت قاعدة هذا الشعر واتسعت آفاقه ، وواجه خصومة حادة من المحافظين على البحور الخليلية . على أن الشعراء الذين استحدثوا شعر التفعيلة لهم منزلتهم الشعرية فقد صدرت لهم دواوين شعرية التزموا فيها بالبحور التي قعدّها العالم الكبير الخليل بن أحمد الفراهيدي . لكن مدارس الغرب اجتذبت عدداً من الشعراء الذين لهم صلات بالآداب الأجنبية فاقتبسوا هذه الطريقة وحاولوا تأصيلها في الشعر العربي الموزون المقفى ، وقد أساء كثير من الشباب الذين رأوا أن في هذا الشعر ما يعفيهم من الوزن والقافية فركبوا موجته دون دراية به

ولا ثقافة تؤهلهم للتعامل معه فكانوا جناية على هذه الحركة الشعرية وإساءة إليها ، فهي في حقيقتها لا ترفض البحور الشعرية المعروفة في الشعر العربي وإنما تأخذ منها بمقدار ما تتحور منه من الطابع التقليدي المعروف ، وقد اشتكى المنظرون لهذه الحركة من تطفل كثيرين عليها وإصدار شعر ينقصه لا الوزن فحسب وإنما يفتقر إلى الشعور ، وفي هذا المضمار كثرت التجاوزات وامتهنت الضوابط التفعيلية وتدنّت القيمة الفنية للقوائد التي انطلقت من أصحابها بلا تقيد ببحر ولا محافظة على معنى ، وسبّب ذلك الانفلات المطلق تصورات خاطئة عن قول الشعر بلا موهبة ولا ثقافة وإدراك ، وقد مهّد ذلك الانفلات من القواعد الشعرية إلى ما هو أسوأ كما يتمثل ذلك في قصيدة النثر التي جرى اقتباسها من الغرب أيضاً اقتباساً مقروناً بالضحالة الفكرية والأمية الثقافية .

قصيدة النثر :

اندفاعاً وراء التقليد الغربي وإمعاناً في النقل عنه سواء كان هذا المنقول منسجماً مع واقعنا الثقافي أو مخالفاً له فقد تسللت إلينا قصيدة النثر في غفلة من الزمن حيث وجدنا أنفسنا أمام صورة ممسوخة للشعر مغايرة كل المغايرة للصور الشعرية التي عهدناها في شعرنا الماضي والمعاصر ، فقد كانت نصاً منقولاً عن بعض المدارس الغربية شكلاً ومضموناً ، وإذا كان هذا اللون من القوائد يتمشى مع الأدب الغربي فإنه لا يلتقي مع تقاليد الشعر عندنا وما تواضع عليه المجتمع العربي في سالف العصور وحتى عصرنا الحاضر، ونظراً لاختلاط المفاهيم واختلال الموازين سارت الموجة : (القصيدة) ولو أنها غير مؤهلة للسير في أرض عربية تجذب نفسها فيها غريبة الوجه أعجمية اللسان ، وقد سببت بلبلة في الأذهان لأنها مهجنة فهي تبدو في إطار غربي وتكتب

بحروف عربية ، وقد بشر بهذه القصيدة المهجّنة شعراء يحملون أسماء العرب لكنهم في الوقت نفسه يحملون أفكار الغربيين ومنهم يستمدون ثقافتهم ورؤيتهم ، وهم بذلك يمثلون عقولاً مزدوجة الولاء ومصادر مشبوهة القصد . كما أنهم يمثلون الاغتراب الثقافي حيث تحكمهم عقدة محاكاة الأجنبي وكيفية السير على منواله والتقليد بمنهجه ؛ لذا جاءت هذه القصيدة النثرية التي أحدثت شرخاً في كيان القصيدة العربية المعاصرة .

بدعة الحداثة :

وكما أحدثت قصيدة النثر ذلك الشرخ في بناء الشعر العربي فقد فعلت الحداثة ما هو أكثر تصدّعاً وأشدّ وبالاً على الفكر العربي والإسلامي ، ففي ظل التحولات الحادة في كثير من الاتجاهات ظهرت على سطح الأدب المعاصر بدعة جديدة اسمها (الحداثة) وهي بدعة هزت المعايير الأدبية الثابتة واختل بناء الثقافة العربية المألوفة ، وقد نبئت هذه الظاهرة الغربية مع موجات تلك التحولات السريعة والاضطرابات المختلفة . لا سيما وقد اتسعت في هذا العصر المنافذ وانفتحت الأبواب فكان من السهل ولوج أي بدعة مستحدثة حملها تيار التغريب الحديث ، ووجدت إقبالاً من الذين يستشعرون في نفوسهم شيئاً من مركّب النقص بإزاء أدباء الغرب ، فكان هذا التوجّه في تقليده ومتابعته متابعة الظل للأصل ، وعلى الرغم من أن الحداثة وقد أهيل عليها التراب في بلدان غربية متقدمة ، فقد بعثهما من مرقدها أفراد من بني جنسنا لأنها نبتة أجنبية ، ولعل بعضهم ركب موجتها وهو يجهلها أو يجهل أبعادها الفكرية المنحرفة ولكن استهواه مصدرها وهو يجهل نتائجها وما تنتهي إليه من شطحات غير مأمونة الجانب ولا محمودة العاقبة ، وكثيرون تستهويهم

التبعية والتقليد لمن يرونهم أعلى منهم مكانة في الحضارة القائمة ، ولا شك أن الانفتاح الواسع على الأمم الغربية هياً أذهان بعض العرب في غمار تلك التبعية للخيالات الجامحة والأفكار المتناقضة . على أساس أن النظرية الغربية تجد القبول لدى كثيرين من المفتونين بمنجزات الحضارة الوافدة ، والانتاج الحداثي في كل صوره خارج على الإيقاع العربي السليم ، وقد اقتحم مجال الحداثة أفراد من المتعجلين للشهرة والراكضين خلف الأضواء وإن كانت تنقصهم الثقافة العامة والاستعداد الفكري لكنها موجه يركبها المثقف السطحي والعالم والجاهل ، وقد جاءت بعدها نظرية (ما بعد الحداثة) وهي نظرية خارجة من عباءة الحداثة وعلى شاكلتها ومؤدى ما تنتهي إليه مثل هذه النظرية آراء سطحية مثل موت كاتب النص أو المؤلف ، وهذا يدل على الفراغ الذي تعيشه كثير من النظريات الغربية التي تصدر عن فراغ فكري وترف حضاري ، والمؤسف حقاً أن يتسول بعض شبابنا مثل هذه النظريات العبثية من الغرب ، وقد كتب مثقفون وأدباء كبار عن هذه النظريات التي يسودها العبث بالعقول وتقوم على الفوضى في التفكير ، فكشفوا سوءها وحجموا وضعها فإذا هي تجديف في فراغ وصدى لفكر أجنبي ونهاية إلى الضياع .

خاتمة :

وقد ساعدت الحضارة الوافدة في تلك التحولات الفكرية وما تلقفه كثيرون من أبناء هذا الجيل من نظريات غربية مبتسرة من خلال ترجمات مشوهة ، وركبوا الموجه تبعاً للمعاصرة التي قامت في أذهانهم على أنها تتمثل في مخالفة النسق الذي تسير عليه حياة أسلافهم والخروج على المألوف من توجهات مجتمعهم ، وبذلك ظلوا في (الأعراف) بمنطقة معزولة عن أمتهم وعن

الغرب الذى كرسوا له انتماءهم ، وذلك نتيجة التبعية الغربية استشعاراً منهم بعقدة نفسية أمام أصحاب الحضارة المادية، ومع أنهم مقلدون للأفكار المستوردة فإنهم عاجزون عن متابعة الانجازات الغربية النافعة فقد اقتصر تقليدهم على ما يضر ولم يحاولوا التقليد فيما يفيد .

وثررة الأمة الحقيقية تتجسد فى قيمها وسلوكياتها ومنها القيمة الفكرية والثقافية المتصلة بالوجدان والمعبرة عن الذات ، وهى ذات أهمية فى حياة الأمة وذات أثر فى كيان المجتمع ، وفى مواجهة التحديات الفكرية التى تغزونا من جوانب شتى وتستأثر باهتمام كثير من أبنائنا وتغمر بهم : علينا أن نبصر الشباب الجانح بالعواقب التى تنتج عن الانزلاق فى تلك المتابعات الثقافية المنحرفة ، فبلادنا تجد نفسها فى انطلاقتها نحو المعاصرة محوطة بعوامل كثيرة من صور التطور غير بريئة الأهداف ولا سليمة الاتجاهات ، ولهذا فإنها تُعوّل على عقيدتها التى لا يجوز المساس بها من أى أسلوب من الأساليب ؛ فهذه الأمة المسلمة مسلماتها اليقينية وثوابتها التى لا تقبل التراخي فيها أو المساومة عليها لأنها تمثل أهم مقوماتها وأصدق ممارساتها ، وهى فى منطلقاتها المتطورة ونهضتها المتقدمة لا تغفل عن الاهتمام بمستلزماتها الدينية وشعائرها الإسلامية إلى جانب تعاملها مع أدوات التطور ووسائل التقدم ؛ ونحن الذين نختار الأدوات والوسائل التى نستعملها فى مسيرة نهضتنا الفكرية والثقافية لتساير نهجنا فيما هو مصدر اعتزازنا من حصانة إيمانية تمثل ثوابتنا العقيدية وموروثاتنا الإسلامية وتنتهى بنا إلى الطريق الرحب المستقيم .